

التحرير والتنوير

استئناف عن قوله (ومن يكفر باء) الآية لأنه إذا كان الكفر كما علمت فما ظنك بكفر مضاعف يعاوده صاحبه بعد أن دخل في الإيمان وزالت عنه عوائق الاعتراف بالصدق فكفره بنس الكفر . وقد قيل : إن الآية أشارت إلى اليهود لأنهم آمنوا بموسى ثم كفروا به إذ عبدوا العجل ثم آمنوا بموسى ثم كفروا بعباسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد وعليه فالآية تكون من الذم المتوجه إلى الأمة باعتبار فعل سلفها وهو بعيد لأن الآية حكم لا ذم لقوله (لم يكن اء ليغفر لهم) فإن الأولين من اليهود كفروا إذ عبدوا العجل ولكنهم تابوا فما استحقوا عدم المغفرة وعدم الهداية كيف وقد قيل لهم (فتوبوا إلى بارئكم) إلى قوله (فتاب عليكم) ولأن المتأخرين منهم ما عبدوا العجل حتى يعد عليهم الكفر الأول على أن اليهود كفروا غير مرة في تاريخهم فكفروا بعد موت سليمان وعبدوا الأوثان وكفروا في زمن بختنصر . والظاهر على هذا التأويل أن لا يكون المراد بقوله (ثم ازدادوا كفرا) أنهم كفروا كفرة أخرى بل المراد الإجمال أي ثم كفروا بعد ذلك كما يقول الواقف : وأولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أولادهم لا يريد بذلك الوقوف عند الجيل الثالث ويكون المراد من الآية أن الذين عرف من دأبهم الخفة إلى تكذيب الرسل وإلى خلع ريقة الديانة هم قوم لا يغفر لهم صنعهم إذ كان ذلك عن استخفاف باء ورسله .

وقيل : نزلت في المنافقين إذ كانوا يؤمنون إذا لقوا المؤمنين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ولا قصد حينئذ إلى عدد الإيمانات والكفرات . وعندى : أنه يعني أقواما من العرب من أهل مكة كانوا يتجرون إلى المدينة فيؤمنون فإذا رجعوا إلى مكة كفروا وتكرر منهم ذلك وهم الذين ذكروا عند تفسير قوله (فما لكم في المنافقين فئتين) .

وعلى الوجه كلها فاسم الموصول من قوله (إن الذين كفروا) مراد منه فريق معهود فالآية وعيد لهم ونذارة بأن اء حرهم الهدى فلم يكن ليغفر لهم لأنه حرهم سبب المغفرة ولذلك لم تكن الآية دالة على أن من أحوال الكفر ما لا ينفع الإيمان بعده . فقد أجمع المسلمون على أن الإيمان يجب ما قبله ولو كفر المرء مائة مرة وأن التوبة من الذنوب كذلك وقد تقدم شبه هذه الآية في آل عمران وهو قوله (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) .

فإن قلت : إذا كان كذلك فهؤلاء القوم قد علم اء أنهم لا يؤمنون وأخبر بنفى أن يهديهم وأن يغفر لهم فإذا لا فائدة في الطلب منهم أن يؤمنوا بعد هذا الكلام فهل هم مخصوصون من آيات عموم الدعوة .

قلت : الأشخاص الذين علم اﻻ أنهم لا يؤمنون كأبي جهل ولم يخبر نبيه بأنهم لا يؤمنون فهم مخاطبون بالإيمان مع عموم الأمة لأن علم اﻻ تعالى بعدم إيمانهم لم ينصب عليه أمانة كما علم من مسألة " التكليف بالمحال لعارض " في أصول الفقه وأما هؤلاء فلو كانوا معروفين بأعيانهم لكانت هذه الآية صارفة عن دعوتهم إلى الإيمان بعد وإن لم يكونوا معروفين بأعيانهم فالقول فيهم كالقول فيمن علم اﻻ عدم إيمانه ولم يخبر به وليس ثمة ضابط يتحقق به أنهم دعوا بأعيانهم إلى الإيمان بعد هذه الآية ونحوها .

والنفي في قوله (لم يكن اﻻ ليغفر لهم) أبلغ من : لا يغفر اﻻ لهم لأن أصل وضع هذه الصيغة للدلالة على أن اسم كان لم يجعل ليصدر منه خبرها ولا شك أن الشيء الذي لم يجعل لشيء يكون نابيا عنه لأنه ضد طبعه ولقد أبدع النحاة في تسمية اللام التي بعد كان المنفية " لام الجحود " .